الله المربي

الأب أيوب شهوان

مقدمة

عندما نتلفّظُ بكلمة " مربّي"، يربطها عقلنا فوراً ببعض المنهجيات المعتمدة لنقل معارف معيّنة. إذا كان الله يقدّم ذاته كـــ"مُرَبٍّ" لشعبه، ينبغي إذاً أن نتوقّع أن يستعمل هو أيضاً وسائل منظّمة، ومنهجيّات محدّدَة، يبلغ بها أهدافه.

فما هو هدف الله تجاه الإنسان؟ الجواب هو أنّ الله يُريد أن يَخلُصَ جميعُ الناس. لقد جاد بابنِه الوحيد كي لا يهلك كلُّ مَن يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبديّة. لا يهلك الناس إلا بسبب عدم إيمانهم، برفضهم قبول المغفرة المجانية للخطايا التي حقّقها المسيح على الصليب. إنّ في كلّ كائن بشريّ نزعةً إلى الشرّ تؤدّي به إلى أن يرتكب الخطأ، لذا كان لا بدّ من التربية والتأديب.

نحن نعلم أيضاً أن لا شيءَ عند الله مشتركٌ مع الخطيئة، وأنّ الوسيلة الوحيدة للمصالحة مع الإنسان يجب أن تمرّ بذبيحة البارّ الوحيد، يسوع المسيح ابن الله. هكذا يبدو الصليب، ليس هدفاً، بل وسيلة تصحيحِ حالةٍ يرى اللهُ أنّها "غير طبيعيّة"، أي لا تتماشى مع ما رسمه ونظّمه منذ البدء. في عِلْمِه المطلق كان الله يعرف سقطة الإنسان، وشاءَ أن يخلّصه؛ لقد خاطر، إذا جاز التعبير، بخلقه أناسٍ لن يقبلوا تصميمه الخلاصي. هدف الله تجاه بني البشر هو أن يعيد صياغة طبيعتِه الإلهية فيهم. إنّ شريعة الطبيعة التي تدفع الكائنات إلى أن تتناسل حسب أصنافها، ليست سوى ظلّ هذا الهدف الإلهي. لقد وَضَعَ الله المربّي لذاته هدفًا، وهو أن يجعلنا شبيهين به، علمًا أنّنا نبقى دائماً دونَ الله وإلى حدّ كبير.

أيّة صفة يشتهي اللهُ، إذا جاز التعبير، أن يراها تزيّن الإنسان؟ بالطبع، تلك الصفة التي تشكّل حوهره، أي أنه محبّة. ليس ١ قو ١٣، المقطع الرائع حول المحبّة الإلهية، مقطعاً شعرياً بديعًا وحسب، بل هو تعبير رائع عن أنّ هدفه هو أن يرفَعَنا إليه لكي نكون انعكاسَ مجدِه، وصورةَ محبته.

١ – الله يربّي ويؤدّب بالشريعة

من الواضح أنّ الشريعة، مع أوامرها الآلية، لم تكن قادرةً على أن تكون هدفاً بذاتها يُرضي الله. إنّ إحدى مميزات المحبّة هي أن تكون مختارةً بحريّة، إذ لا محبّة بإكراه، ولا إكراه في المحبة.

إنّ الله القادر على كلّ شيء هو نقيض مَن يفرضون مشيئَتهم بوسائلهم القمعية والتعسّفيّة. قال يسوع للسامرية: "ستأتي ساعةٌ، وقد أتت، حيث العابدون الحقيقيون يعبدون الآب بالروح والحقّ؛ فهؤلاء هم العابدون الذين يطلبهم الآب" (يو ٤: ٢٣). لا يمكن هذا الهدف أن يكون بالإكراه بل بحُرّية أبناء الله، ولا محصورًا بإتنيّة واحدة بل شموليّ. كلّ إنسان بطبيعته هو إذًا موَجَّهٌ لأَنْ يُعيد صياغة صورة الله في ذاته.

لقد ظهرَ **النهجُ التربويُّ الإلهيُّ** بنوعٍ خاصّ في عطيّة **الناموس** (رج خر ١٩–٢٠؛ تث ١–١١؛ ٢٩–٣٠)؛ فقد أُعطِيَ الناموس كـ"**مؤدِّبٍ**" يُرشِدُ الشعبَ إلى المسيح (رج غل ٣: ٢٤). إنّ "الشريعةُ الأخلاقيةُ هي من عمل الحكمة الإلهية، ويمكن تحديدها، بالمعنى الكتابيّ، بأنّها **تعليمٌ أبويٌّ وتربيةٌ من الله**؛ إنها ترسمُ للإنسان سُبُلَ السلوك وقواعدَه إلى السعادة الموعودة؛ وتحظر سُبُلَ الشرّ التي تصرف عن الله ومحبّته. إنّها، في آنٍ واحد، متشدّدةٌ في أوامرها وطيّبةٌ في وعودها"[١].

لقد عالج بولس الرسول موضوعَ شريعةِ الربِّ من حيث أنها "مؤدِّبة" ("paidagwgo")، في غل ٣: ٢٣–٢٥. كان "المؤدِّب" خادمًا يقود الولد الصغير إلى المدرسة ويسهر على سلوكه. ومع أنه لم يكن معلِّمًا، فإنه كان يلعب دورَ المرشد الخُلُقيّ، فيحمي الشاب الصغير من التأثيرات اللاأخلاقية. تشديدُ بولسَ هو أوّلاً على الناحية المُلزمة للشريعة باعتبارها مؤدِّبة. فكما كان المربّي يحدّ بالضرورة من حرّيّة القاصر، هكذا كانت الشريعة تحدّ من حرية أولئك الذين هم خاضعون لها، وذلك كي تحميهم من الخطيئة، حتّى ولو لم تكن قادرة على أن تضمن لهم التبرير المحيي. يستعمل بولس ذات التعبير ("paidagwgo") في ١ قو ٤: ١٥، حيث يعتبر نفسَه الأبَ المؤسِّسَ للجماعة، من واجبه بالتالي أن يلعب باسم الرب دور المربّي.

---

[١] **التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية**، رقم ١٩٥٠.

يشبّهُ بولس وضعَ اليهودِ تحت الشريعة بوضع الوريث الموضوع تحت سلطة الأوصياء والوكلاء إلى اليوم المحدَّد لبلوغ سنّ الرشد. كانت مرحلة الشريعة (من موسى حتّى المسيح) زمنَ الإنسان القاصر، تكون فيه حريةُ مَن هم "تحتها" محدودةً. في الواقع، أولئك الذين هم تحت الشريعة لم يكونوا مختلفين عن العبيد؛ لكن، عندما أرسل الله ابنه، انتهت مرحلة القُصُور، وانتهى دور الشريعة.

في غل ٣: ٢١-٢٢، يفسّر بولس لماذا الشريعة ليست على نقيض الوعد؛ وفي آ ٢٣-٢٥ يستعمل صورة "المربّي"/"المؤدِّب" ("paidagwgo")، الذي لعبته الشريعة في البشرية (آ ٢٢) قبل مجيء المسيح.

لا بدّ من الاستنتاج إذًا أنّ الشريعة القديمة هي **تهيئةٌ للإنجيل**، كتابِ التربيةِ الإلهية والبشرية بامتياز، وبالتالي هي "نبوءةٌ عن الحقائق الآتيةِ و**تربيةٌ** عليها"[٢]، لأنها أنبأَت بعمل التحرير من الخطيئة الذي سيتمّه المسيح؛ لذلك هي تختزن كَمًّا من الصّوَر و"المُثُل" والرموز للتعبيرِ عن الحياةِ بحسبِ الروح، ومن هذا المخزون سيستلّ العهدُ الجديد الكثير الكثير. وبالطبع، تكتملُ الشريعةُ بتعليمِ الكتب الحكميّة والأنبياء الذين يوجّهونها نحو العهد الجديد وملكوت السماوات، فإذا بنا أمام مشروع تربويٍّ إلهيٍّ ولا أعظم، يختزن ديناميكيةً تؤدّي حتمًا إلى **التقدّم**، "من الأرضيّ إلى الروحانيّ" (١ قو ١٥: ٤٦). من المؤكّد أنّ الله المربّي هو أبٌ محبٌّ، مستعدٌّ للذهاب بعيدًا إلى حدّ التضحية بابنه لأجلنا. بالتالي، كل من يعترف أن يسوع المسيح هو الديان الأعظم والمخلّص، يكون قد التحق بمدرسة هذا المربّي الذي لا مثيل له.

٢ – تربية الله تُبلغ إلى الإيمان

بهدف تبيان الخصائص التربوية لدى الله، لا بدّ من التوقّف عند موضوعات مختارة تتعلّق بالتربية في العهد القديم، والتي نعتبرها كشواهد على عمل الله تعليمًا وتوجيهًا وتنشئةً، لكن المجال هنا لا يتّسع لذلك؛ فالمعجزات، والآيات، والشفاءات، والأمثال، والضربات التأديبية، والحنوّ الأموميّ، وإرسال الأنبياء والحكماء والأتقياء، كلها وسائل يستخدمها الله لكي يربّي

[٢] إيريناوس، **الردّ على الهرطقات**، ٤، ١٥، ١.

الإنسان وينشّئه على ما هو لخيره وحياته وخلاصه. فما يبدو قاسيًا، أو دراماتيكيًا، أو حتّى عنفًا إلهيًّا أحيانًا، يحمل في طيّاته أسمى مشاعر المحبة والرحمة والحنان الذي لا مثيل له.

ولا بدّ من التأكيد أن **الإيمان** يبقى النقطة المرجعية في عمل الله التربوي، أو التأديبيّ عند الضرورة، مع ما تحفل به كلمة "تربية" من أبعاد سامية تنطلق من **العلاقة** المتبادلة بين الله والإنسانِ صنعِ يَدَيْه. فالإيمان يوقظ الشوق إلى الخالق الرحيم، وكل ما هناك من شرائع ونواميس وتوصيات وأوامر يُدعَى الإنسان إلى تطبيقها، ليست هدفًا بحدّ ذاتها، بل حافزٌ أو دَفْعٌ يُشعل حُبَّ المحبوبِ الأرضيّ تجاه المُحِبِّ السماويّ. وكلّما خرّب الإنسانُ مشروعَ الله، حلّ به التأديب وأُنزِل به العقاب، إلى أن تستقيم الأمور، وتعود المياه إلى المجاري كما خطّط الله منذ البدء، وفي هذا عملية "تربية" لا هدف لها سوى مَن هو الهدف الأحبّ إلى قلب الله: الإنسان!

وإذا ما نظرنا إلى مجملِ عمل المسيح يسوع مخلّصنا، لتبيّن لنا أنه مشروع تربويٌّ متكامل وكامل، يحقّق التحوّل الذي يردّ الإنسان إلى بيت الآب.

٣ – تربية الله مسيرة من العلاقة إلى المعرفة

كل تربية تفترض أساسًا، ومن حيث طبيعتها، وجود **علاقة** تلد أجمل ما يمكن بين اثنين من وحدة في الاختلاف، وانسجام في الفرادة، وتماثل في الصورتين، وحياة يفجّرها اللقاء. هكذا هي تربية الله، ومن ثمَّ تربيةُ ابنِه يسوع التي مشّى عليها أحبّاءَه الرسل، ليس بهدف العلاقة بحدّ ذاتها، بل للعبور منها وبها إلى **المعرفة** صانعة الحياة.

في عمله التربويّ، لا يتوقّف الله عند إعطاء تعاليم قد تشبه ما يلقيه المعلّم والحكيم والعالِم على تلميذه، لتحذيره من الوقوع في الخطأ، أو لاتّباع السبل التي تؤدي إلى سعادةٍ ما معيّنة، بل يُعنَى بالتعريف بذاته، كاشفًا عنها لقديسيه الأطهار القادرين على قراءتها وفهمها، ثمّ حَمْلِها إلى مَن يَسيرُ في رَكْبِهم المبارك، وفي هذا لفتةٌ تربويةٌ سامية. إنه ذاك الإله الذي سيجلو يسوعُ صورتَه لنا لاحقًا على أنه "روح" (يو ٤: ٢٤)، و"الإلهُ الحقُّ الأوحد" (يو ١٧: ٣)، الذي "لا صالح إلاّ هو"، "إله إبراهيم وإسحق ويعقوب" (مت ٢٢: ٣٢). لا أهمية حقيقية للتربية الإلهية إذًا إلاّ بلغت بنا إلى هذه المعرفة العظيمة! نحن أمام إلهٍ مُرَبٍّ، ينبغي أن يرتقي

الإنسانُ، موضوعُ تربيته، إلى التناغم المطلق مع "التطويبات" التي سيصوغها ابنُه يسوع كـــ"ميثاق جديد"، يُفجِّرُ العملُ به دفقَ محبة.

وهنا، إذا ما أخذنا مَثَلَ ضَرْبِ الله لمريامَ بالبرص ثم إبلالها منه، نستنتج كم أن الله يرغب في العلاقة من خلال التأديب والتقويم والدفع إلى الوعي فالتوبة؛ فمريام التي أَمَرَّهَا اللهُ في أتّون البَرَص، هي غيرها قبل ذلك، لأنّ توبتها وطّدت العلاقة بين الله وبينها، من جهة، وبينها وبين موسى شقيقها، من جهة ثانية. ومن خلال مريام وما حصل لها، ستتعلّم الأجيال عدم الوقوع في ذات المحظور، وفي حال وقعت في الجهل المميت، ستُعِينُها قصةُ مريام على فتح العينين، ومن ثمَّ بناء العلاقة من جديد. وهنا لا بدّ من التنويه بأهمية التأديب في عملية التربية، وبدور التضرّع إلى الله إبّان التأديب، هذا التضرّع الذي تضعه التربية الإلهية في الواجهة للحصول على المطلوب، لا بل للاعتراف بالله بإيمانٍ واثق ومتين.

وكم تبدو العلاقة رائعة في عمل الله التربويّ الذي، بعدما يَهَبُ، يَدَعُ الإنسانَ "يذهب"، كما سيفعل يسوع لاحقًا عندما يشفي أو يغفر: "**إذهب**". هنا تكمن عظمة التربية الإلهية؛ فالله لا يربّي لكي يصبح الإنسان مِلْكًا له، بل لكي "ينطلق" في حياةٍ تتوفّر فيها كل شروط الاستمرار والنجاح.

خاتمة

يتكلّم القديس إيريناوس أسقف ليون على **النظام التربوي الإلهي** في شكلِ تَعَوُّدٍ متبادَل بين الله والإنسان، فيقول: "سكنَ كلمةُ الله في الإنسانِ وصيّرَ ذاتَه ابنًا للإنسان لكي يعوّد الإنسانَ على إدراك الله، ويعوّد الله على الحلول في الإنسان، وفقًا لما يرتضيه الآب"[٣]. يندرج هذا المشروع في قصد الله الخلاصيّ، الذي يجذب الإنسان إليه عن طريقه رفعه إليه بتربية صبورة ومتواصلة تُعِدُّهُ مرحليًّا لتقَبُّلِ الوحيِ الفائقِ الطبيعةِ الذي يكشف فيه عن ذاتِهِ، والذي سيبلغ أوجَهُ في شخصِ الكلمةِ المتجسّد، يسوع المسيح، وفي رسالته، الذي، إذا ما ارتفع، رفع الجميع إلى أبيه السماوي. وكلُّ مَن سَمَتْ به تربيةُ الله إلى الأعالي، وصار على صورة الابن الحبيب المربّي، غدا بدوره علّة تربية وحياة لكثيرين.

---

[٣] إيريناوس، **الردّ على الهرطقات**، ٣، ٢٠، ٢.